خطابات الاستشراق

روبرت أروين ■

ترجمة: **أحمد عثمان**

إذا كان قد تأكد منذ فترة طويلة أن كتاب «الاستشراق» لإدوار سعيد، المنشور في عام 1978، احتوى على العديد من الأخطاء الحدثية وأخطاء التأويل، نستند ـ في غالب الآحايين ـ إلى دفاعه عن فتح الحقول البحثية وتنشيط النقاش في هذا المجال. من ناحيتي أعتقد أن هذا الكتاب، والكتب التي حذت حذوه أغفلت آفاق البحث، وأن النقاش الحي إلى حد كبير الذي نجم عنه انحصر آخر الأمر في حدود ضيقة للغاية. دوماً يظل تاريخ الاستشراق الآكاديمي والفني في حاجة إلى كتابته؛ ولكي يكون واضحاً وكاملاً في آن معاً، من اللازم اجتياز الحدود الكرونولوجية والطوبوغرافية التعسفية كلية التي استحضرها سعيد وتلاميذه. من الغريب تماماً ـ على

■ نص محاضرة المستشرق البريطاني، روبرت أدرين، في معهد العالم العربي، باريس، بتاريخ 5 نوفمبر 2009.

سبيل المثال ـ أن سعيداً اختار أن يتجاهل الوجود الفرنسي في شمال إفريقيا والتواطؤ الحميم الذي نلاحظه في بلدانها بين المديرين الكولونياليين، الجامعيين والفنانين، مما أسهم في فقد العرض الكبير للاستشراق الفرنسي الذي اقترحه سعيد من حظوته، حيث حصر مجهوده في تحليل بعض أعمال الكتاب الرومانسيين.

نتخيل جيداً أن سعيداً لم يشعر بنفسه وهو يندفع نحو الاتهام الكامل للاستشراق، مما يقتضي تحليلاً بالمنهج نفسه، الاجيبتولوجيا، والدراسات العبرية، والفارسية، والتركية، أعمال علماء السنسكريتية والحضارة الصينية، كما كل سلسلة التفاعلات الثقافية في الغرب بالنسبة إلى الشرق. والعقل الانسيكلوبيدي القادر على تحليل كل ما سبق لم يخلق بعد؛ بَيْدَ أن سعيداً استطلع نوعاً ما منهج الدراسات السنسكريتية أو الصينية المتطور، مما أفضى به إلى الحذر الكبير.

لم يؤسس غزو مصر على يدي بونابرت ـ في عام 1798 ـ تحولاً قوياً في دراسة العرب والإسلام في الغرب، وسوف أرجع إلى هذه النقطة؛ إذ إنني أفكر أن ما سبق لم يكن ـ على الرغم من أن من الممكن حدوثه ـ لحظة قطيعة في تاريخ الاجيبتولوجيا. غير أننا إذا نظرنا إلى تاريخ الصينولوجيا (علم الحضارة الصينية) ـ وهو علم يهيمن الفرنسيون عليه منذ فترة طويلة ـ نجد من الواضح أن عام 1798[1] لا يمثل أي أهمية استثنائية. كانت فرنسا أول دولة تخصص كرسي أستاذية للعلوم الصينية في عام 1814. وخلال القرن التاسع عشر، تطورت أعمال كبار المتخصصين في هذا المجال (جوليان، ريموزا وهرفي دو سان ـ دونيز) دون أن نستطيع ربطها بالنزعات الإمبريالية لفرنسا. خلد بول بليو وهنري ماسبيرو (ابن الاجيبتولوجي) التقليد خلال

1 ـ عام الحملة الفرنسية على مصر.

القــرن العشرين، وحتى الحرب العالمية الثانيــة، حافظت فرنسا على مكانتها كموجه الصينولوجيا؛ بَيْدَ أن الحدث الجوهري الذي سطره الصينولوجي بيار ريكمانــز ـ المعروف على نطاق واســع باسم سيمون ليز ـ يتمثل في أن معظم علماء الحضارة الصينية ـ اليوم كما في الماضي ـ كانوا من الصينيين.

بالنسبة للدراسات الهندية أفضى الاحتلال البريطاني لشبه القارة الهندية علــى مدى القرن الثامن عشر إلى ظهــور مجموعة مهمة من الباحثين، وكمية مــن الإصدارات حــول السنسكريتية والمسائل المتعلقة بهــا، ومن الحقيقي أن عــدداً مــن الإسهامات المبكرة البارزة ترجع ـ علــى سبيل المثال ـ إلى ويليام جونــز أو هنــري توماس كوليبــروك. ولكن على وجه الاجمال، لــم يتبع الإنتاج الأكاديمي الراية، وكانت الجامعات البريطانية بطيئة في تطوير دراساتها حول السنسكريتيــة، وبدلاً من أن يكرس المستشــرق السير شارلز ليال ـ الذي كان يعمل في «الخدمة الهندية المدنية» ـ جهدٌ لدراسة الموضوعات الهندية؛ فضل أن يحقق متعته كباحث في ترجمة الشعر العربي الجاهلي، غير أن الفرنسيين هــم أول من خصصــوا كرسي أستاذية لأوجست فيلهلــم فون شليجل في عام 1808؛ بينما انتظرت إنجلترا حتى عام 1853 لتأسيسه.

لســت مؤهلاً بما يكفــي للحديث عن الدراسات الهنديــة، غير أنني أرجع إلى الكتاب الضخم «النهضة الشرقية» (1950) لريموند شواب، الذي خصصه لهــذه المسألــة، ألاحظ أنه يؤكد أن العمل الفرنســي «الزند افيستا» ـ المنشور فــي عــام 1771 مــن قبل انكتيل ـ دوبــوران ـ أسس التحــول الحقيقي في تاريخ الدراسات الشرقية. بالنسبة للدراسات اللاحقة في هذا المجال نرى إلى أنها تديــن ـ جوهريــاً ـ للمعرفة العميقة للألمان، من خلال نتاجات مثل «عن اللغة والحكمة في الهند» (Über die Sprache und Weisheit der Indier) لفريدريش فون شليجل، ترجمة «البهاجافاد جيتا» وأعمال أخرى من قبل أوجوست فيلهلم فون شليجل، وترجمة «الريج فيدا» لماكس مولر.

إذا أحصينا صور العالم الأدبي التي بينها شواب، المتأثر بقوة بالاكتشافات والترجمات المتقدمة عن الأدب الهندي خلال القرن التاسع عشر ـ جوته، لامارتين، نوفاليس، هوجو، ميشليه، بودلير، هاينه، نيتشه، شوبنهاور، امرسون، فيتمان، شيللي ـ نرى أن الأخير كان البريطاني الوحيد بينهم.

ومع ذلك، على الرغم من هذا الإسهام الصغير نسبياً من جانب المستشرقين البريطانيين، قامت الأبحاث التي حققها أعضاء الجمعية الآسيوية في البنغال بدور في ظهور «النهضة البنغالية» الأصيلة؛ حيث أعاد البنغاليون اكتشاف ماضيهم، والتعامل معه بفخر. فضلاً عن ذلك ـ مثلما وضح شارلز الين في كتابه «بوذا والأصحاب» (2002) ـ أدت الأبحاث الاستشراقية دورها في انبعاث البوذية المجددة في جنوب آسيا.

للتوضيح، من اللازم القول ثانية: إن الاستشراق لم يكن «مهيئاً» من قطعة واحدة. في مختلف البلاد الأوروبية تطور عبر مراحل متباينة، وبكثافة متنوعة وتكوينات مختلفة وانشغل تطور الاستشراق الموجه نحو العالم العربي في القرنين السابع عشر والتاسع عشر في اطار الدراسة العلمية النقدية، وأحياناً المثيرة للجدل بالقرآن، والأحاديث والتفسير، وترجمة مختارات من كتابات المؤرخين، لا سيما الطبري وبالتالي، نجد أن الاهتمامات الدينية هي التي هيمنت على هذا العلم، على الأقل خلال القرن العشرين. وإذا كانوا قد قاموا بدراسة العبرية ـ وهذا منذ البداية ـ لفهم عبرية الكتاب المقدس بصورة فضلى، أو معرفة شيء عن نمط حياة العبرانيين القدماء، أو البحث عن إعادة بناء كرونولوجيا عالمية تبين دقة التواريخ التي دونها العهد القديم، أو التحضير لعمل الإرساليات، أو المساعدة في التقريب بين الكنائس المسيحية الشرقية مع كنيسة أو أكثر من الكنائس الغربية، أو الانتصار في النقاش على

الكاثوليـك، أو البروتستانـت، أو التأليهيين[1]. خلال فتـرة طويلة، هيمن رجال الأكيروس على مجال الدراسات الإسلامية، وكانت الأسباب الدينية أصل إنشاء أوّل كراسـي العربية في إنجلترا، خـلال القرن السابع عشر. بدلاً من مساندة الإمبراطورية كان البحث عن السلام، والأمل في الجنة والخوف من الجحيم، المحرك الرئيس للاستشراق لفترة من الزمن.

باستثنـاء ـ ولكنه كبير الأهمية ـ كان «لألف ليلة وليلة» في الأدب العربي، كأدب، أثر صغير على الثقافة الأوروبية ما بعد عصر النهضة. ومع ذلك، ففي بدايـة القرن التاسع عشر تبدى لفترة أن ملحمة عنترة من الممكن أن تصبح نصـاً عظيمـاً، غير أنه أملٌ لـم يتحقق. وعلى أي حال كانت هناك قلة ـ مثل شارلز ليال أو آلفونس دو لامارتين ـ اهتمت بجدية بالشعر الجاهلي لدى العـرب. حتـى أن المخطوطات العربيـة المصورة الرائعـة التي يعـاد اكتشافها في كبـرى المكتبات الأوروبية لم تثر أي اهتمام علمي أو جمالي حقيقي وقت اقتنائها.

إن الاستشراق لم يكن «مهيئاً» من قطعة واحدة، في مختلف البلاد الأوروبية تطور عبر مراحل متباينة

فـي حقيقـة الأمر ـ وبالمثـل ـ لم يكن للأدب والفـن الفارسيين أي تأثير ملحوظ على الغرب، غير أن هذه المرة كانت الاهتمامات الأكاديمية أو الدينية أقل أهمية، ولم يكن هناك تقليد كبير للدراسات الفارسية، سواء في بريطانيا العظمـى، أو ألمانيا أو فرنسـا، وكانت المعارف البريطانيـة والألمانية تمضي عبر الترجمات الفرنسية. على سبيل المثال تعدّ ترجمات آندريه دو روير أحد أوائـل الفرنسيين الذين درسوا الفارسية خـلال الثلاثينيات من القرن السابع عشر، ذات أهمية كبرى. أخذ الافتتان بالثقافة الفارسية معناه في إطار سلسلة

1 ـ التأليهيون، المنتمون إلى التأليهية، وهو مذهب يقر بوجود الله، وينكر الوحي والآخرة.

رمزية مـن ترجمات شعرية؛ حيث تبدى ضرورة مقابلة ترجمة سعدي لأندريه دو رويـر بترجمة حافظ وسعـدي لوليامز جونز، وترجمة شاهنامة الفردودسي لجول موهل بترجمة عمر الخيام لفيتزجيرالد. في هذه المجموعة الشعرية من الضروري إضافة بعض نصوص عدد من الرحالة في بلاد فارس، ومن الممكن أن نذكـر مـن بينهم بيترو ديللا فال، جون شـاردان، جيمس موربيه، ارتور دو جوبينـو أو بيـار لوتي. بالتالي، لم يكـن الاهتمام الغربـي بالموضوع الفارسي منصبـاً علـى التيولوجيا أو التاريـخ، وإنما استند إلى الشعـر الفارسي، أو ما عرفنـاه حالياً من الشعر الفارسي من ناحية أولى، والذوق المتنامي للمنمنات الفارسية من ناحيـة أخرى. وهكذا كانت الاهتمامات الجمالية والصوفية هذه المـرة في مقدمة المشهد. خلال عصر النهضة الشرقية شرح رايموند شواب أن بـلاد فارس ـ وبعد أن فتحها العرب ـ احتلت مكانة مهيمنة على الخارطة، ولكنها متكئة بالأخص على ماضيها قبل الإسلام (افيستا، بهلوي ومسماري). «بـدءًا من بـلاد فارس، ومن خلال آنكتيـل، كما كتب شـواب، أخذت الأبواب تنفتح...». (ص 6).

حتـى وإن اقتصـرت بداية علاقـة الغرب بالشرق الأوسـط بأواخر القرن الثامـن عشر، نذكـر أن الأتراك، والايرانيين إلى حد مـا، والمسلمين الهنود، هـم الذين جذبوا فضـول الرومانسيين عن العرب بوضع «ألف ليلة وليلة» على جانـب، يتبيّن لنا أن بايرون لم يكن مهتمـاً بالمسائل العربية، وإنما بالأتراك والألبـان. (روايـة) «لالا رخ» لمـور[1] تتعلق بالإيرانييـن والمسلمين الهنود. كان ينظـر إلى المجموعة الأولى مـن الرسامين المستشرقيـن ـ في القرن السابع عشـر ـ علـى اعتبار أنهم «رسامو البوسفور». وفي القرن التاسع عشر ـ أقولها مـراراً وتكراراً ـ لم يكن الاستشـراق الأدبي حركة متجانسة تستخدم مفردات

1 ـ سير توماس مور (1779 ـ 1852)، مستشرق بريطاني.

ومجموعة أحكام مسبقة مشتركة، وبالتالي، فقد كانوا على خلاف المستشرقين البريطانيين ـ مور، ساوثي، شللي ـ في السجل الأدبي، الذين يمثلون صورة مستشرقي المكاتب، كتب الفرنسيون ـ شاتوبريان، نرفال، لامارتين، فلوبير، فرومنتان، لوتي، جيد ـ في غالب الأحايين عن أماكن زاروها واقعياً، وكتاباتهم ـ إذن ـ تعد أكثر توثيقاً وأقل تخيلاً.

هيمن بايرون ومور وشيللي وتوماس هوب ووالتر سكوت وجيمس موريير ـ الذين كونوا ذروة الاستشراق الأدبي البريطاني ـ بموضوعاتهم عن التمرد، الأهواء والطغيان الشرقي، على العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر. نتحقق ثانية أنه لا يرتبط بأدنى علاقة مع كرونولوجيا الإمبراطورية، ولا مع كرونولوجيا التصوير ولا الموسيقى الشرقية، وحتى الثمانينيات من هذا القرن ـ باستثناء مرسى في عدن ـ لم يكن لإنجلترا ممتلكات في الشرق الأوسط، وكانت طموحاتها السياسية في المنطقة محددة بالتالي في الاستحواذ على مكانة الإمبراطورية العثمانية للتصدي للطموحات الروسية في موانئ البحار الدافئة، ومع آواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وضعت بريطانيا العظمى يديها فعلياً على مصر كمستعمرة، ومنها تقدمت نحو السودان، وفي آخر الأمر ـ بعد الحرب العالمية الأولى ـ بَنَتْ بريطانيا العظمى إمبراطوريتها الوقتية في الشرق الأوسط.

لم تكن كرونولوجيا التصوير الاستشراقي البريطاني مختلّةً بالنسبة إلى كرونولوجيا الأدب أو الإمبراطورية. وفي حقيقة الأمر، ازدهر التصوير الاستشراقي لدى البريطانيين على يدي داڤيد ويلكي ودافيد روبرتس وجون فريدريك لويس، بدءًا من ثلاثينيات القرن التاسع عشر؛ أي أن الرحلات بالسفن البخارية عبر البحر المتوسط والمرونة المتمهلة للحجر الصحي سهلتا الدخول إلى مصر والأراضي المقدسة. بالنسبة للاستشراق الموسيقي

إذا وضعنا جانباً نمط موسيقى الإنكشارية خلال القرن الثامن عشر، من الضروري انتظار نهاية القرن التاسع عشر؛ للتوصل إلى حركة مهمة مع بورودين، رمسكي كورساكوف، رافيل، ساتي، بارتوخ، وآخرين. بالنسبة للاستشراق الجامعي البريطاني لم يبدأ أو ينتعش إلا مع نهاية القرن التاسع عشر، مع وليام رايت وروبرتسون سميث.

إذاً، في حقيقة الأمر، ليس هناك مجال للقول، بوجود «خطاب استشراقي» موحد.

لنترك جانباً ولبعض الوقت سؤال معرفة ما إنْ كان هناك خطاب واحد أو بالأحرى كم من الخطابات، لكي نتساءل عما اقتطعه سعيد كبديهية: أسبقية السياسة في أي خطاب استشراقي. في كتابي («برغبة المعرفة: المستشرقون وأعداؤهم»** ـ المنشور في 2006) حاولت أن أكون عرضاً تاريخياً للدراسات العربية والإسلامية التي لا تنطلق من مسلّمة أن السياسة تعدّ القوى القاطرة لهذه الدراسات، وقمت بهذا المنهج ببساطة؛ لأن أية فرضية أخرى ستتبدى لي مغلوطة تاريخياً.

لن أدخر ما أسماه ا. ب. تومبسون ـ عن الأساقفة المثقفين والكهنة العلماء ـ «التسامح الكبير للجيل»؛ لأنه إذا كان عصرنا الحالي متعلماً ـ وهذا أمر طيب ـ فمن اللازم أن نتجنب إسقاط أية علمانية على الأجيال السابقة.

لنذكر ـ في هذا الشأن ـ أن اللغة اللاتينية كانت اللغة الأولى للاستشراق، مثلما كانت لغة المعرفة الجامعية، هذا لم يتبدَّ أبداً في النقاش الحالي. لم تكن أولية اللغة اللاتينية ـ كما أهمية اللغة اليونانية ـ من دون نتيجة، وقد تعلق الأمر بلغة عالمية، كان من السهل على الدانماركيين، الهولنديين،

** أي كتابه ذائع الصيت: Robert Irwin, For Lust of Knowing: The Orientalists and - Their Enemies. Allen Lane. 2006.

والروس والإسبان أن يجلبوا إسهاماتهم إلى هذا المجال. حتى أن الهولنديين اتجهوا إلى حمل أسماء لاتينية: ابنيوس، جوليوس، رابلينجيوس. فضلاً عن ذلك، حينما تعلق الأمر بإعداد الكتب الأولى لقواعد اللغة العربية، كانت كتب قواعد اللغة اللاتينية النموذج المحتذى به بشيء من الرعونة. مال المؤرخون الذين درسوا صعود ونهاية الخلافة العربية إلى نسخ سردهم حرفياً على صعود وانهيار جيبون في انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية. اجتذبت شركة الهند الشرقية مرشحيها على قاعدة امتحانات تبيّن مقدرتهم على ترجمة هوميروس، هيرودوت، شيشرون وآخرين، وخدم تاريخ الإمبراطورية الرومانية التحضير لحكم الإمبراطورية البريطانية، وواصل جون شاردان ومن بعده جوبينو رؤية فارس عبر عيني هيرودوت.

أسهم الأدب الكلاسيكي، ـ أدب اليونان وروما ـ كمعيار لتقويم كافة الآداب الشرقية، وخفف ويليام جونز من غرابة الشعراء الفارسيين بمقاربتهم بهوميروس أو هوراس. في القرن العشرين أيضا، كتب ر. أ. نيكولسون تاريخه الأدبي عن العرب (1907) بالإشارة إلى هوميروس، لوسيان، هيرودوت وتاسيت. وبالنسبة لأطروحته عن ابن رشد والرشدية، ارتكن رينان ـ أساساً ـ على ترجمة لاتينية لابن رشد (وكانت أفضل؛ إذ إن عربية رينان كانت سيئة لدرجة كبيرة). واينو ليتمان ـ في القرن العشرين ـ في ترجمته «لألف ليلة وليلة» إلى الألمانية، جعل الفقرات «الفاحشة» باللاتينية. هذه المكانة الساحقة للاتينية في علم الاستشراق تبيّن جلياً أن الجمهور العريض لم يكن يستطيع إلى حد ما الوصول إلى أبحاث المستعربين والإسلامولوجيين.

في القرن العشرين أيضاً، حرر دو غوية «المكتبة الجغرافية العربية» باللاتينية، وهذا نكاية في الفرنسيين الذين قاموا بدور رائد في طباعة الأعمال العلمية باللغة الوطنية، وظل الألمان متشبثين لفترة باللاتينية. فتح

اندريه دو روير الطريق ـ منذ القرن السادس عشر ـ مع ترجماته لسعدي والقرآن إلى الفرنسية، وبعد ذاك أفسح بارتليمي دربلو المجال للعديد من أعمال علم الاستشراق للجمهور العريض في عام 1697 بإصدار مكتبته الشرقية باللغة الشائعة. أما انطوان جالان[1] ـ الذي أسهم بدقة في هذه المؤسسة ـ فقد نشر ترجمته الشهيرة بالفرنسية «لألف ليلة وليلة»، وكان حصاده ملحوظاً إلى حد ما كحكايات خرافية، سبقتها بفترة قليلة مجموعة الحكايات الشعبية لشارل دو بيرو، حيث نجد أن حكايات مثل «الجميلة النائمة»، «ذو اللحية الزرقاء» أو «سندريللا» أعيد كتابتها بأسلوب رشيق، وبسيط وبارع.

قبل فترة قليلة شارك بيرو في النقاش الكبير الدائر حول «النزاع بين القدماء والمُحدثين»، إذ صرّح أنّ فرنسا القرن السابع عشر أدركت مستوىً راقياً من الحضارة عن حضارتي الإغريق وروما، واتهم القدماء ـ وبالأخص هوميروس ـ لنبرتهم الهمجية، وإذا كانت الحكايات الشعبية التي جمعها بيرو كتبت بأسلوب رشيق؛ فهذا لأنه أراد أن يبيّن وجود ثقافة أدبية فرنسية حديثة نوعية ولا تدين بشيء إلى تعاليم القدماء. فضلاً عن ذلك منحت الحواشي المضافة إلى الخرافات هذه الحكايات مظهراً أخلاقياً بالمقارنة مع الخرافات الموجودة في الأدبين: الإغريقي واللاتيني، وتم الإعجاب بمجموعة حكايات جالان («ألف ليلة وليلة») للسرد والمشاهد والشخصيات التي أبرزتها. ولذا صرح الروائي القوطي هوراس فالبول: «اقرأوا سندباد وستحظون بكثير مثل اينياس»[2]. بحث جالان ـ مثل بيرو ـ عن التهذيب الأخلاقي، وفي ملاحظة

1 ـ جدير بالذكر أن انطوان جالان (1646 ـ 1715) أضاف وحذف العديد من حكايات «ألف ليلة وليلة». للاستزادة، من الممكن الرجوع إلى دراسة:

عبد الواحد الشريفي، انطوان جالان و«ألف ليلة وليلة»، مجلة الآداب الأجنبية، دمشق، العدد 98، 1999.

2 ـ إينياس، أحد أبطال طروادة، نجل الفارس أنتشيسيس والإلهة أفروديت.

استهلالية لترجمته تمنى أن يتعلم قراء حكاياته من دروس الفضائل والرذائل التي يجدونها. في الواقع كان لترجمات جالان لحكاياته العربية ـ كما ترجمات جونز المتأخرة للشعر الفارسي ـ تأثير محرر على الآداب الأوروبية، كأنها عملت على ترسيخ أنواع جديدة وقطعت الروابط مع المعايير الكلاسيكية للأدب والأعراف اللاتينية.

لكي أنهي هذا الاستطراد الطويل نوعاً ما حول هذه الموضوعة، أقول: إن معظم المستعربين الأوروبيين تلقوا تكويناً تقليدياً، وحينما اتجهوا إلى اللغة العربية، اختاروا اللغة العربية الفصحى لدراستها، وحينما كانوا يلاقون أحدهم يتحدث الدارجة المعاصرة ـ كما جرى مع أبي قدنوس القبطي[1] الذي وصل إلى أكسفورد في عام 1610 ـ يصابون بالحيرة، إذ أن المستعربين الأكاديميين اكتسبوا معارفهم من اللغة الفصحى القروسطية. مما يعني أن للغتهم العربية أهمية عملية محدودة للغاية بالنسبة للحكومات ذات الميول الإمبريالية والعمليات التجارية، وإن كان هناك البعض، مثل سكاليجر، توماس هايد وسيلفستر دو ساسي، الذي كان قادراً على تحرير خطابات دبلوماسية رشيقة، وإذا كان سلفستر دو ساسي ـ كما ذكر سعيد دون إن يورد أي دليل ـ قد كوَّن مستعربي بونابرت في غزوه لمصر في عام 1798، فلم يكن لهذا الشأن أية أهمية تذكر، إذ إن هذا العالم الكبير كان غير قادر على التحدث باللغة العربية، ولم يكن لديه أية معرفة عن اللغة الدراجة الشائعة في مصر. بالمقابل، اعتمد بونابرت بهمة على المترجمين

الاستشراق الجامعي البريطاني لم يبدأ أو ينتعش إلا مع نهاية القرن التاسع عشر

1 ـ أبو قدنوس (بارباتوس)، جوزيف (القرن السادس عشر ـ القرن السابع عشر). وُلد في القاهرة. اعتنق الكاثوليكية. تصر الكتابات الأوروبية على نعته بالمستشرق. أستاذ اللغة العربية في أكسفورد، لوفان وڤيينا.

القادرين على هذه الممارسة في إطار السفراء، وظلت هذه الحالات كنوع من أنواع التقليد في العالم الجامعي (أتحدث عن تجربتي الشخصية، في أكسفورد ومدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية SOAS بجامعة لندن خلال الستينيات من القرن العشرين) بحيث تكون الدراسة باللغة العربية الفصحى، وإذا أردنا أن نتعلم الكلام مع العرب بدارجتهم، من الضروري الذهاب إلى برليتز[1].

اليوم احتكرت الجامعات إلى حد ما الدراسات الشرقية، ولم يكن الأمر كذلك دوماً. بالمثل، من الخطأ تاريخياً النظر إلى ماضي الوضع الحالي لأقسام دراسات العالم العربي المجهزة جيداً، والتي يعمل فيها خبراء متخصصون، يرتكنون على توافق علمي عريض بالنسبة إلى المسائل العربية والإسلامية المطروحة.

حينما نرجع قليلاً إلى الوراء نلاحظ أن بريطانيا العظمى ـ مثلاً ـ لم تمتلك إلّا عدداً قليلاً من الأبنية الجامعية في هذا المجال (وكانت الدراسات التركية، والفارسية والصينية غير محظوظة). في غالب الأحايين، ظل كرسيا ليدن وتوماس آدمز ـ اللذان تأسسا في القرن السابع عشر ـ شاغرين، وحينما تم شغلهما كان دوماً لأناس ليس لديهم شيء كبير لتقديمه، حتى وإن كانت لديهم الرغبة في تقديم شيء ما. تعجل إدوار سعيد في اقتراحه قراءة كتاب لين (إدوارد) عن المصريين المعاصرين «1836»[2]، على اعتبار أنه «عمل لمساعدة تنظيم الاستشراق الجامعي». في بادئ الأمر من الضروري أن يهدف نشر كتاب لين من قبل جمعية «لأجل نشر الثقافة المفيدة» جمهوراً عريضاً، ولهذا السبب كان ثمنه غير مرتفع. ثانياً ـ وهي وجهة نظري الرئيسة ـ لم

1 ـ معهد وسلسلة كتب جيب مبسطة لتعليم مختلف اللغات، بلهجاتها المختلفة، كما مع اللغة العربية: «العربية المصرية»، «العربية التونسية»... إلخ.

2 ـ أي كتاب «أخلاق وعادات المصريين المعاصرين».

تدعـم أيـة مؤسسة هذا العمل، أيضاً لم تكن للين ـ الذي لم يتلق سوى تكوين باحث آثار ـ علاقة متميزة مع الوسط (الجامعي).

فضـلاً عـن ذلك، لم يكن فـي بريطانيـا العظمى مستعربـون ذوو أهمية حتـى ثلاثينيـات القـرن التاسع عشر: لا نجـد جامعة بريطانيـة وقتذاك غير مهتمـة بحياة المصريين، المصريين المعاصرين كمـا أريد القول. في القرن السابـع عشـر شغفت بدايـات الإسلام علـى وجه الخصوص بوكـوك، وحينما انطلقـت الدراسات الإسلامية في بريطانيـا العظمى ـ في نهاية القرن التاسع عشر، وبالأخص على يدي ويليام رايت، روبرتسون سميث وإدوارد بالمر ـ كان للأدب الكلاسيكي وبدايات الإسلام الأهمية أيضاً، وبالنسبة لمستشرقي القرن التاسع عشر فالشرق ينتمي إلى الماضي. لم يكن هناك أي فضول علمي بشأن حيـاة المصريين الحضريين المعاصرين، وفـي القرن العشرين انطلقت فقط الدراسات الاثنوغرافية والآنتروبولوجية عن العرب.

فـي حديثه عن لين أكد سعيد ثانيـة أن «الجمعية الملكية الآسيوية» كانت المؤسسة الداعمة لعمل لين، وبالنسبة لي راجعت بكل عناية مجموعة «جريدة الجمعيـة الملكية الآسيوية» خلال الأعوام الأخيرة من ثلاثينيات القرن التاسع عشر، لم تذكره الجريدة؛ بل ويتبدى لي أنها كانت غير مهتمة أساساً بالثقافة العربيـة المعاصـرة، فقد كانـت المقالات ـ وهي مكتوبة مـن قبل هواة وليسوا جامعييـن ـ تهتـم فـي الغالب بالثقافـة الهندية. من وجهة النظـر تلك هناك اختـلاف مهم عـن «الجريـدة الآسيوية» المنشـورة في فرنسا خـلال العصر نفسـه، إذ إننا نجد فيهـا عدداً من كبار الجامعيين، أمثـال اتيين كارتمير أو جارسـان دو تاسي من مدرسة اللغات الشرقيـة، غير أننا لسنا في حاجة إلى القـول: إن «المجلـة الآسيويـة» لم تثـر أي اهتمام بكتاب لين، ولـم تهتم أبداً بعادات المصريين أو العرب المعاصرين.

يمسُّ فهم التفـوق الألماني (أي جيـل هامر ـ بورجشتـال وفلايشر) في مجال الدراسات العربية والإسلامية عدداً من الجامعات. كان كل أمير ألماني يدعـم جامعته الخاصـة، وكان لجامعة جوتنجن ـ على وجـه الخصوص ـ دور رائـد في مقاربتها السياقيـة للنصوص الكلاسيكية، مقاربـة مطبقة بعد ذلك بالتعميـم على النصوص الكتابية والعربية. قام تحـرر اليهود في ألمانيا بدور طليعي؛ إذ قام العلماء اليهود؛ أمثال أبراهام غايغر وجوستاف فايل، القادمين من الدراسات العبرية، بإحياء الدراسات العربية.

بَيْـدَ أن السبب الرئيس لتفوق الجامعـات الألمانية في الدراسات الشرقية يرجـع إلـى الفيلولوجيا، العلـم الرئيس خـلال القرنين الثامن عشـر والتاسع عشـر، مما جعلها تتبوأ مكانة ملحوظة. فـي الواقع، كان هذا العلم ينظر إليه علـى أساس أنـه أداة فعالة لاكتشاف كيف كان الإنسان يحيا ويفكر، حتى قبل ظهـور التاريخ المكتوب، وكانت الفيلولوجيا العلم الرئيس والعلماء البريطانيون النادرون ـ الذين تلقوا تكوينا فيلولوجيا ـ اكتسبوه من ألمانيا. أعتقد أيضاً أن التفوق الألماني في مجال الفيلولوجيا يمثل أصل حماسة ارنست رينان لكل ما هـو ألمانـي. بالنسبة إليه فإن اكتشاف الثقافة الألمانية كان كما «الدخول إلى معبد». «ألمانيا عشيقتي» كما كتب. وهردر كان الكاتب الذي تناقش رينان معه بقوة.

هنـاك سبب آخر للتقـدم الألماني في أرض الاستشراق المعتمة يتمثل في الممارسـة الجامعيـة للسيطرة علـى إدارة الأقسام المتخصصـة؛ حيث يقوم المحاضرون[1] دون أجر بإلقاء دروسهم عن موضوعات من اختيارهم.

1 ـ أي المحاضـرون Privatdozenten، ضمـن التقليـد الجامعـي الألمانـي، الذين يلقـون دروسهم حسب كفاءتهم ودون أن يتلقوا عليها أجـراً، ولا تقوم الدولة بمنحهم أية امتيازات. بَيْـدَ أنها مرحلة إلزامية للحصـول على الوظيفـة الثابتة، ولـم يزل هـذا النظام معمـولاً به في العديـد مـن دول العالم، التي استعارته عن ألمانيا، ومن ضمنها النمسا، سويسرا، روسيا، بولونيا، هنغاريا، تركيا، فنلندا والسويد.

هـذا هو أثر تغيير الصـورة المهنية للجامعيين اليـوم للمبالغة في تقدير أهميـة جامعـات الماضي. في نهاية القرن الثامن عشـر، كان في فرنسا أربع وعشرون جامعة، ولكن لم يكن لدى إنجلترا سوى أكسفورد وكمبريدج (تأسست جامعتا لندن ودورهام في أوائل القرن التاسع عشر)، وحتى وإن أنتجت جامعتا لايـدن وأكسفورد إسهامات مهمـة في تطوير الاستشـراق العلمي خلال القرن السابع عشر (نذكر بوكوك، سكاليجر واربينيوس)، فإنَّ هذا الأزدهار لم يستمر لفتـرة طويلة. ومـع القرن التاسع عشر، حازت مساهمات الجامعات على شيء مـن الأهميـة. بالتالي، من الخطأ تاريخياً التفكير فـي أن البحث الاستشراقي ناتـج الجامعـات. قبل القرن التاسـع عشر قام الأرستقراطيـون ورجال الدين بدور مهم، لنذكر أن المستشرقين البارزين من سيلفستر دو ساسي إلى رينان، منحدرون من المؤسسة الدينية (نتذكر المطران لود، الأسقف لانسلو أندروس والمبجل ويليام بدويل في إنجلترا القرن السابع عشر).

كان للجمعيات العلمية وظيفة الطبقة الاجتماعية، حين يقوم الأرستقراطيون ورجـال الإكليروس بـدور كبير، مما كـان له بالـغ الأثر في تطـور الدراسات الشرقيـة، وخـلال عشرينيات القرن التاسـع عشر كان دوق دورليـان الرئيس مدى الحيـاة للجمعية الآسيوية، ونوابه كما مستشاره من الدوق والى الماركيز والبارون (المجلة الآسيوية، «قائمة مجلس الإدارة»، 59ـ 60: 1829). كان الدوق دو بلاكاس ـ برغم كونه عضواً عادياً ـ من كبار جامعي الفن الإسلامي وقتذاك (فرنـوا، 1ـ 23: 2000)، وكانـت الجمعية الملكية الآسيويـة ـ التي تأسست في 1823 ـ تضـم على مدى القرن التاسع عشر، عدداً ضخماً من الارستقراطيين: علـى وجه الخصوص دوق ولتقوى، كونـت ليفربول، ماركيز سالزبوري ـ علاوة على عدد من الأمراء الهنود (بكنجهام، 4ـ 5: 1979). أيضاً قامت الصالونات ـ كمـا المكتبات ـ بدور مهم في نشر المعارف الاستشراقية. في باريس، تردد مستشرقون كبار ـ ومنهم سيلفستر دو ساسي، جول موهل وارنست رينان ـ على

هـذه الصالونات، لا سيما صالون الأميرة ماتيلد بونابرت (1820ـ 1904) الذي استقبـل عـدداً من الرسامين الاستشراقيين، أمثال ديلاكـروا، انجر، فرنت، فرومنتـان وجيروم، والكتّـاب، أمثال دوما، جوتييه، فرومنتـان أيضاً، وفلوبير، الذين أسهموا بطرق شتى في الاستشراق الأدبي. كان الاستشراق حقلاً يسيطر النبلاء المسيحيون عليه ـ وأميرة بالمناسبة.

قبل القرن العشرين كانت الإصدارات الاستشراقية ـ بخصائصها المكلفة والقـراء المحدودين ـ نادراً ما تمول من قبـل الجامعات، وفي معظم الأحيان تقوم على الرعاية الأرستقراطية والأسقفية الإنجليكانية، وقامت شخصيات مثل المطران لود، الأسقف لانسلو أندروس والسير هنري سافي بدور خير وعطوف في تطوير الدراسات العربية خلال القرن السابع عشر في إنجلترا.

لا ينتمي لين ـ وقد ذكرته من قبل ـ إلى أية جامعة، وقاموسه عن المفردات العربيـة الإنجليزية القاموس الأكثر أهمية مـن هذا النوع خلال القرن التاسع عشـر، لم يكن لينشر إلا بالدعم الـودي والمساعدة المالية لاجلرنون بيرسي، لورد برودهو، ومتأخراً دوق نيوكاسل. لم ينكر ذلك لين في مقدمته حيث أشار إلى بيرسي على اعتبار أنه «محرك هذا العمل، وداعمه الوفي والرئيس». كان الدوق نصيراً مهماً للايجيبتولوجيا، وجامعاً للآثار المصرية.

لم يكن شارلز شيفر ـ المتخصص الكبير وجامع المخطوطات الشرقية ـ فـي حاجة إلى راتبه كبروفيسور؛ لأنه يعيشـ على ريع أطيانه. عن شيفر كتب تلميـذه دنيسون روس (الذي أصبح بعد ذاك مدير مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية): «لم يكن فقط باحثاً استثنائياً؛ وإنما كان أيضاً سيد كبير، ورجلاً عظيماً بصورة ملحوظة».

مـن السهل مضاعفـة نماذج إسهامـات الأثرياء الأرستقراطييـن ـ الهواة تحديـداً ـ للاستشـراق العلمي، وقـد تأتى أن بلغ بعضـ المستشرقين ـ الذين

لا ينتمـون إلى الأصل الأرستقراطي ـ مرتبـة النخبة: حاز سيلفستر دو ساسي علـى الدوقية، وهاملتون جب على البارونية، وأنا أتحسر اليوم على توقف هذا التقليد.

تمكن عدد كبير من رسامي الموجة الاستشراقية الأولى من زيارة الشرق بمعيـة الأثريـاء. على سبيل المثـال، سافر البائـس ريتشـارد داد إلى الشرق كرسام في خدمة السير توماس فيليب، وكان ملتزماً برسم لوحات تبيّن رحلة السيـر توماس (وربما هذا العمل الـذي جننّه)، وسافر جـون فردريك لويس لفترة كفرد من أفـراد حاشية الفيكونت كاسلريج، وخدم دوزاتس كليتوغرافي فـي رحلـة البارون تايلور الاستكشافية في عـام 1930، وبعد عام سافر الرسام ماريلهـات مـع البارون شارلز فون هوجل. وهلم جـرًّا. بطبيعة الحال أثر ذوق النخبـة على الموضوعات التي اختارها الرسامـون الاستشراقيون، كان السوق يستلـزم صور الخيول. مثلما لاحظ شارلز نيوتـن، «من الصعب أن نفهم الآن ـ ونحن في عصر المحرك ذي الاحتراق الداخلي ـ كليةً وجود الولع بالخيول». كان فرومنتان يريد أن يصور الكثير من الخيول، غير أنه كان مقتنعاً من قبل تاجـره أن الزبائن يطلبون لوحات الخيول. في مذكراته الأدبية، حكى ماكسيم دو كامب حالة فرومنتان المثيرة للحزن:

«مـع كـل اقتراح أجابـوه: «لا، ارسم لنا شيئاً جزائريـاً ـ تعرف ـ مع أحد هـذه الخيول الصغيرة الصدفية اللون التي برعـت في رسمها». يرغي ويزبد، وللمـرة المائـة، يرسم حصاناً أبيض، شجرة بلا اسم فـي الحديقة، وعربياً صغيـراً عـاري الذراعين. ذات يوم انتهى من رسم إحـدى لوحاته الجميلات، وعرضها علي، وهو يقول لي رافعاً كتفيه: «أنا محكوم عليه بتخليد كل هذا!».

إلى جانب الخيول كانت الطبقة النبيلة تطلب لوحات الصيد، ودون نيوتن هـذا التعليـق على لوحة مائيـة تصور عربـاً يصطادون غزلاناً قـرب البتراء،

«متكئة على الهاجس الفيكتوري للصيد، كانت هذه الموضوعات الشائعة تعلق في بيئة غير بيئتها». لوحات الفرسان والفنطازيا تسجل، أيضاً، ضمن الوله الفيكتوري للقرون الوسطى وعصر الفرسان.

في دراسة شهيرة وصفت المؤرخة الفنية ليندا نوكلين (الشرق المتخيل، 1983) ـ وهي من تلاميذ إدوارد سعيد ـ اللوحات الاستشراقية كأنها ـ قبل أي شيء ـ ملصقات دعائية ورموز إمبريالية وعنصرية. حسب نوكلين فهؤلاء الرسامون بحثوا ـ بعزم وتصميم ـ عن تصوير العرب والأتراك بطريقة متعجرفة، وعلى تسطير إخفاقات الحضارة الإسلامية، بالتركيز على الأطلال، الحريم، أسواق العبيد، والإعدامات الدموية. حسب نوكلين أيضاً لم يكن الفنانون ـ أسرى هذه الايديولوجيا ـ خاضعين لضغوط السوق، إذ نرى أن الرساميين الاستشراقيين كانوا مثل الجامعيين الذين يتقاضون مرتبات عن كونهم فنانين أو حرفيين يدويين يقومون ببيع كل قطعة ينتجونها، ومع ذلك كان أسلوب ومضمون لوحات جون ليون جيروم رغم أنه أميركي، ناجماً بصورة رئيسة عن كونه مرتبطاً بايديولوجيا الإمبراطورية الفرنسية التي كانت تكتفي بإشباع ذوق زبائنها. ومن الممكن أن يقال الشيء نفسه مع المستشرق الروسي فاسيلي فريشتشاجين الذي وجد أفضل زبائنه في الولايات المتحدة الأميركية. تمثل معارض الصيف سوق التصوير البريطاني المهمة للغاية حيث إن اللجنة المنظمة لا تنظر بعين الرضا إلى اللوحات الشهوانية: ينزع الفن الاستشراقي البريطاني إلى الموضوعات الكتابية أكثر من الايروتيكية، وكانت فضيحة حينما عرضت لوحة «سوق العبيد» لجيروم في الأكاديمية الملكية.

بوجه خاص لم يبحث التصوير الاستشراقي عن رسم الأكواخ البائسة، الشحاذين ذوي الأسمال والشوارع القذرة (بينما نجد أن الكتابات حول الشرق

الأوسط وصفتها بغزارة) كأن لم يكن هناك طلب، أو حتى طلب ضعيف، على هذه الموضوعة من قبل زبائن الرسامين الموسرين.

انتقدت نوكلين الصفة «النهائية» للوحات جيروم وطلبته وأنصاره، كأن الأمر يتعلق بمؤامرة ضد الشرق الأوسط؛ ولكن كما سطر تيودور زلدين، يتبيّن أن النزعة الأكاديمية هي التي فرضت نهاية الأعمال، وليس الاستشراق بخاصة. بالنسبة لرسامي هذا العصر، كان من اللازم على البورتريهات، المناظر الطبيعية، الطبيعة الصامتة، كما لوحات الموضوعات التاريخية أو الدينية، أن تكون محققة بطريقة ماهرة تجعل من يد الفنان غير مرئية. ذكر تيودور زلدين أن تطور التصوير الفوتوغرافي ـ في منتصف القرن التاسع عشر ـ أفضى إلى أن يكون الطلب على اللوحات محدداً بالصور الفوتوغرافية، كانت نهاية العمل تدرس في مدرسة الفنون الجميلة وكانت من خصائص الفن الأكاديمي الفرنسي.

قام المترجمون والمنشدون ـ كما المثقفين الوطنيين خلال القرن التاسع عشر ـ بدور مهم للغاية في العلم الشرقي

اتخذت شخصيات ثرية ـ الرجال بالأخص، وأيضاً بعض النساء ـ الشرق ساحةً للهوها، وبالتالي، ترتكن الصورة المختلقة إلى حد كبير على طرق رؤية الأرستقراطيين: الليدي مونتاجو، فولني، شاتوبريان، هستر ستانهوب، كينجليك، لامارتين، ماكسيم دو كامب، ويلفريد بلنت، شارلز دوتي، جورج كورزون وجرترود بل. من بينهم، جاب الشاب الكسندر كينجليك، مؤلف «بلاد الفجر»، أحد كلاسيكيات أدب الرحلات المليء بالحميا والمكتوب بعناية فائقة، الإمبراطورية العثمانية في منصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر. حقق هذه الرحلة ليس على اعتبار أنه عالم يهتم بعادات وتقاليد الأتراك والعرب، أو عالم أثري يبحث عن الأطلال، أو حاج مسيحي؛ وانما على العكس، قام

بالرحلة على سبيل اللهو، بحثاً عن المغامرة وإثبات إمكاناته. قبل بضعة قرون ـ نحـو 1500 ـ رحـل لودوفيجـو دي فرتيما إلى مصر ومنها إلـى الشرق، ليس لمتابعة هدف علمي أو إمبريالي، ولكن بدافع الرغبة في «رؤية مختلف ممالك العالـم، التي شجعت آخرين على القيام بها»، وصرح أنه مع قدومه إلى مصر «كان ظمآن للجديد مثل عطشان يتوق إلى الماء البارد»، وكان حزن العشق وراء رحلـة الأرستقراطـي بيترو ديللا فال ـ أحد نبلاء روما ـ إلى فارس؛ غير أنني أشعر أنّ التحليلات الحالية حول الاستشراق تصمت عن أهمية المال، الشباب، المـزاج، والبحث عن الجديـد وعن المغامرة. حينما اتجه الأرستقراطيون إلى الشـرق تعاملوا مع الحماليـن، التجار، الفلاحين والرعـاة كأنهم يتعاملون مع رجال يعيشون ظروف الحياة نفسها في بلادهم: بكبرياء وتسامح.

أيضـاً قام المترجمون والمنشـدون ـ كما المثقفين الوطنيين خلال القرن التاسع عشر ـ بدور مهم للغاية في العلم الشرقي، دور لم يبحثه سعيد ولا أنا. فـي قاموسـه اعتمد إدوارد لين بقوة على كتاب الشيخ إبراهيم الدسوقي، وفي كتابـي «برغبـة المعرفة»، ذكـرت علماء مثل الدسوقي، طنطـاوي، علي بهجت ويعقـوب آرتين باشا (يمثلون في قاموس المستشرقين باللغة الفرنسية[1] باحثي مجموعـة ف. بويـون). وليس من الصواب أن الشرق لم يعرف قوة أن يعرض نفسه ذاتياً. بعد كل شيء، وخلال فترة طويلة، قرأ كتابان تاريخيان عن الشرق الأوسـط كثيراً: «تاريخ مختصر عن العـرب» (1899) و«تاريخ العرب» (1937)، اللذين كتبهما أمير علي وفيليب حتي بدقة بالغة.

لـم يكن انفتاح مصـر ـ وأكررها ـ النتيجة المباشرة لغزو بونابرت في 1798؛ وإنمـا فـي الغالب أريد أن أقـول «متأخراً»: كان نتـاج سياسة الوالي

1 ـ أي قاموس: - Francois Pouillon, Dictionnaire des orientalistes de langue francaise, editions KARTHALA, Paris, 2008.

محمد علي أحد الألبان المعتنقين الإسلام الذين دخلوا إلى خدمة السلطة العثمانية. بعد عام 1810 تقريباً بدأ الغربيون في اجتياح مصر، ليس كمجتاحين؛ وإنما ضيوفاً، كمدربين عسكريين وخبراء تقنيين. لا يجب المبالغة في تقدير أهمية «وصف مصر» في تاريخ الاستشراق ففي بادئ الأمر اقتنت قلة نسخاً من هذا العمل الباهظ الثمن، حيث إن أجزاءه صدرت ببطء. في المقياس الذي يرى أن قراءها اهتموا بسكان مصر المعاصرة، أكثر من اهتمامهم بموضوعات الفراعنة، كانوا يعتمدون دوماً على النخبة التركية ـ الشركسية أكثر من اعتمادهم على العرب. لين، الذي كان مهتماً فعلاً بالعرب ذكرها، ولهذا السبب اختار أن يأخذ كتاب «التاريخ الطبيعي للألب» لروسيل كنموذج يحتذي به في كتابه «أخلاق وعادات المصريين المعاصرين». رأى لين أن «وصف مصر» ملآن بالأخطاء الحدثية، والرسام ديفيد روبرتس أشار إلى اللوحات غير الدقيقة (ولكنه ارتكب أخطاءه ـ هو أيضاً في رسومه المائية).

إذا وددنا اختبار كيف تشكلت صور الإسلام والعالم العربي في الغرب لا يجب أن نقتصر على متابعة النخبة الجامعية والأدبية وتأويلات النصوص الهامشية الغامضة التي لا توجد من أساسه. من الواجب أن نختبر الروايات، الشعر الفاحش، السينما، المسرح، الميوزيك ـ هول، الغناء الشعبي، البانتوميم، البطاقات السياحية، الأفلام الخيالية والرسوم المتحركة، وفي هذا الصدد، قمت ـ بجدية ـ بمتابعة الروايات البوليسية التي تدور حوادثها في الشرق والكتابات الايروتيكية المسماه «حكايات الشيخ». إذا كانت «حكايات الشيخ» في غالب الوقت مسلية؛ فإن بها أثراً غير مقبول من المشاعر المضادة للإسلام والمضادة للعرب. بالرجوع إلى أهمية الخيال الشعبي، سعدت لما وجدت أن «قاموس المستشرقين باللغة الفرنسية» أدرج مقالات لبيار بونوا، مؤلف «أطلنطا»، جوزيف بيريه، مؤلف «السرية البيضاء»، كما المؤلف الخالد

لمغامرات تان تان[1] لبلوغ موضوعات عامة انجذبت منذ بداياتي كأستاذ جامعي بأفكار فوكو (ميشال) التي تدرس العادات القروسطية إزاء الجنون. كما فهمت، أي حقل استدلال ـ حسب لفظة فوكو ـ يظل محدوداً، يفترض مفردات محددة، مما يجعل المشاركين، غير واعين، ومجبرين. تتمثل مشكلة الخطاب ـ كما ذكر في «اركيولوجيا المعرفة» ـ في أنه يحدد كل ما يمكن أن يقال، وكيف يمكن أن يقال في إطار قسم خاص للمعرفة ـ سواء كانت الفيزياء النووية، النقد الأدبي أو الجنسوية ـ حتى يكون مفهوماً ومقبولاً. حسب سعيد في «الاستشراق»:

«فرض الاستشراق حدوداً على الفكر المتعلق بالشرق آنئذ، حتى الكتاب الموهوبون، الرجال ـ أمثال فلوبير، نرفال أو والتر سكوت ـ كانوا مرتبكين فيما يمكن أن يشعروا به أو يكتبوه عن الشرق»

ولكن ما الذي لم يستطع سكوت أو بيكفورد، دزرائيلي أو موبير، أن يقولوه فيما يختص موضوع الشرق؟ يتبدى لي أن فلوبير عانى من مفردات، على وجه الخصوص محدودة. ما هو الذي لم يتمكن المستشرقون الجامعيون من لفظه بوضوح؟ لم يفسر سعيد أبداً هذا الجانب الدقيق عن الوصف، ولم يشر إلى ما منعهم من القول. وبعد، إذا لم تستطعوا قول ما تريدونه، لن تستطيعوا قوله، وبالتالي ليس أمامكم سوى أن تصفروا.

1 ـ تان تان، شخصية خيالية أبدعتها مخيلة البلجيكي هرفيه (1907 ـ 1983). ودوماً سلسلة مغامرات تان تان اتهمت بالعنصرية، ويتبدى هذا جلياً في تصويره للمصريين والمغاربة والكونغوليين وشعوب أخرى، وخلال الحرب الباردة، تم استخدامها من قبل الغرب كبوق دعاية نحو الاتحاد السوفياتي السابق.